اللاأميركيَّة الفرنسيَّة* وماكدونالدز

دايفيد ألوود

ترجمة: سماح إدريس

«وُلدتُ في بلادٍ روحُها وسكّانُها ومنتوجاتُها متنوِّعة، ومتعدِّدة، ومتغيِّرة، وبارعة. من الحليب، ذلك الغذاءِ البسيطِ والأوّليّ، نَعْرف نحن الفرنسيِّين كيف نَصْنع أكثرَ من ١٠٠ نوع من الأجبان. وكلُّها جيّدة، وصحيَّة، وقويَّة، وغنيَّة، ومسلِّية. وكلُّها ذاتُ تاريخ، وشخصيَّة، ودَوْر. في هذه البضاعة المعروضة وحدها أتعرَّفُ على عبقريَّةِ بلادي، ومنها أَفْهم أنَّ بلادي أَنْجبتْ عددًا ضخمًا من الرجال العظام في كل المجالات المهنيَّة... إنَّني أنتمي إلى شعبٍ من الفلاّحين زَرَعَ بحبٍّ طوالَ قرونٍ ٥٠ نوعًا مختلفًا من الخوخ، تَجِدُ في كلٍّ واحدٍ منها مذاقًا لذيذًا لا يُمْكن أن يُقارنَ بغيره.»

كَتب دُوهامِلْ[١] هذه الكلمات ضِمْن خطبةٍ لاذعةٍ ليحذِّر الأوروبيِّين، والفرنسيِّين بصورة خاصة، من أنَّهم ما لم يَتَّخذوا خطواتٍ لحماية تقاليدهم وقيمهم وهويّاتهم فإنَّ نظام التصنيع المتقدّم الذي أنْتجه التحديثُ في أميركا سيَطْغى عليها جميعًا. وبعد سبعين سنة من ذلك التحذير مازالت المعركةُ ذاتُها تخاض، ولكنْ هذه المرّة من قِبَلِ قائدِ مزارعين هو جوزيه بوڤيه الذي حَطَّمَ بشاحنته في آب (أغسطس) ١٩٩٩ أحدَ مطاعم ماكدونالدز قبل افتتاحه في بلدته Millau، ليَغْدوَ على الفور تقريبًا بطلاً قوميّاً. وقد أُوقِفَ بوڤيه فترةً وجيزة، ثم قاد وفدًا من مؤيِّديه إلى مؤتمر سياتِلْ الذي عقدتْه منظّمةُ التجارة العالميَّة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٩ مُهرِّبًا معه قطعةً من جبنة «روكفور» الفرنسيَّة. وفي تموز (يوليو) ٢٠٠٠ حُوكِم وسط «هيصةٍ» اجتذبتْ ٤٠ ألف شابّ إلى Millau وحظيتْ باهتمام وسائل الإعلام العالميَّة.

في هذه الأثناء راحت المكتبات الباريسيَّة تمتلئ من جديد بعناوين ترثي للمجتمع الأميركيّ سياستَه الخارجيَّة المتعجرفة. من هذه الكتب: **لا شكرًا يا عمّ سام، العالم ليس بضاعةً**، ومَنْ **يَقْتل فرنسا؟ الاستراتيجيَّة الأميركيَّة**، وغيرُها. وقد عَلّق السفير الأميركيّ في فرنسا بالقول: «إنَّ النزعة اللاأميركيَّة اليوم لا تتضمَّن سياسةً محدَّدةً مثلَ العقوبات الإيرانيَّة، بل شعورًا أنَّ العولمة ذاتُ قناع أميركيّ وأنَّها خَطَرٌ على نظرة الأوروبيِّين والفرنسيِّين إلى مجتمعهم... ثمّة إحساسٌ بأنَّ أميركا هي من القوّة بحيث تستطيع أن تَسحق كلَّ ما يَعْترض طريقها.»

ويَبْدو يقينًا أنَّ الحكومة الفرنسيَّة تَشْعر الشعورَ نفسَه. فقد ذُكِرَ أنَّ وزير الخارجيَّة الفرنسيّ أوبِرْ ڤيدرين قال إنَّ دور أميركا في التاريخ الأوروبيّ في القرن العشرين لا يؤهِّلها لأن تتمتَّع بحقوقِ دولةٍ تكون العضوَ السادسَ عشرَ في الاتِّحاد الأوروبيّ. ووحدَها الحكومةُ الفرنسيَّةُ وَصَفتْ بشكلٍ صريحٍ ولادةَ الأُورو بأنَّه ترياقٌ لقوّة الدولار.

«من المهمّ أن نَفْهم لِمَ تسرَّبتْ ضجَّةٌ جديدةٌ إلى تحذيرات فرنسا من القوَّة الأميركيَّة،» هكذا عَلَّقت الطبعة الأوروبيَّة من **وول ستريت جورنال** في آخر شباط (فبراير) ١٩٩٩. ورأى المحاوَرون في هذه الجريدة أنَّ المشكلة تعود إلى شعور النُّخب الفرنسيَّة بعدم الأمان. ففِئْنةُ الأزياء الأميركيَّة في أعينِ أبناءِ هذه النُّخب، وإغراءُ الوجبات السريعة في أعين شبابها، وإغواءُ هوليوود لجمهور المشاهِدين في أوساطها، جعلتْ تلك النُّخَبَ تبدو في الثقافة والسياسة مطوَّقةً ومتخطَّأةً ومتجاوَزةً أكثرَ فأكثرَ. ذَكَرَ آلان فرانْشون، وهو كاتبُ افتتاحيّات في جريدة **لوموند** الفرنسيَّة، «أنَّ الحكومة الفرنسيَّة، والنُّخَبَ الفرنسيَّة، تُدْرك أنّ الثقافة، بالبنط العريض، معركةٌ تَخْسرها يومًا بعد يوم. وهي تغار كثيرًا من قدرة

* ـ French Anti-Americanism: نزعة العداء الفرنسيَّة للهيمنة الاقتصاديَّة والثقافيَّة والسياسيَّة الأميركيَّة. (م)

١ ـ جورج دوهامِلْ Duhamel (١٨٨٤ ـ ١٩٦٦): كاتبٌ ومعلّقٌ فرنسيّ. (م)

فرنسا في مواجهة العولمة المؤمركة: الحريّة، المساواة، جبنة روكفور!

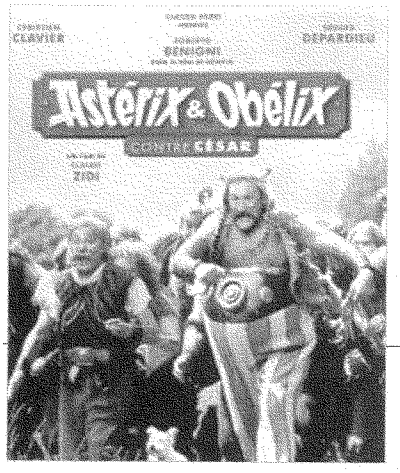

استريكس: صورة المقاومة الفرنسيّة للإمبرياليّة السينمائيّة الأميركيّة

أميركا على الإغراء. وفي مواجهة ذلك، على المرء أن يُحارِبَ، حتى إنْ تَعرَّضَ لخطرِ أن يبدو سخيفًا.»

مؤخّرًا أصرّ جاك لانغ، وهو الرجلُ الذي أضْفى أهميَّةً جديدةً على هذه الأمور أثناء سنوات عمله وزيرًا للثقافة في عهد الرئيس ميتران، على ضرورة تعايُش الاقتصاد والثقافة في فرنسا، إنْ كان لإرث هذه الأمّة ألاّ يتضاءل إلى درجة العدم، وبحيث تكون فرنسا في وضعٍ أفضلَ لـ «الرهان على المستقبل.» وإذ دعا إلى إنشاء وزارةٍ جديدةٍ «للشؤون الثقافيَّة الخارجيَّة،» طالبَ محطّاتِ التلفزيون الفرنسيَّة ببذل المزيد من الطاقة والمزيد من الانفتاح والمزيد من بناء الصِّلات الدوليَّة. كما طالب ببناءٍ متدرِّجٍ صادقٍ لهويّةٍ أوروبيَّةٍ مستندةٍ إلى «الخيالِ المبدع والشبابِ والروح.» وقال لانغ إنَّنا أمام خيارَيْن: إمّا أن يَبْقى العالَمُ القديمُ مجمَّدًا في ظلال الثقافة الأميركيَّة، وسرعان ما سيَنْجم عن هذه الحال خضوعٌ سياسيّ عالميّ للسياسة الأميركيَّة أيضًا؛ وإمّا أن تتمكّن أوروبا ـ بدفعٍ جبّارٍ من فرنسا ـ أن تبيِّن لكلّ الشعوب الطامحة إلى إيجاد بديلٍ من الهيمنة الأميركيّة أنّ «الغرب متعدِّد؛ وهذه رسالةُ أَمَل.»

يَعْتقد دومينيك موازي Moisi، وهو خبير فرنسيّ بارز في علاقات فرنسا الدوليَّة، أنَّ على الفرنسيّين، إذا أرادوا أن يَحُلُّوا مشكلةَ الهويّة ـ وهي مشكلة أساسيّةٌ في الأمّة وتتمثَّل في الخيار بين بناء «وطنٍ عصريّ وطبيعيّ» ووطنٍ مختلفٍ بل ومميَّز ـ أنْ يتوقّفوا عن نَدْب العولمة ودَوْر أميركا فيها، وأن يتخلّوا عن نزعة الحمائيّة الثقافيَّة،* وأن يَعْملوا بدلاً من ذلك على إبداع رسالةٍ خاصَّةٍ بهم: «إنَّ ما ينبغي على فرنسا أن تسْعى إلى الحفاظ عليه، ما إنْ تَعترف بهزيمتها في معركة اللُّغة [أمام الانكليزيّة]، هو سياقُ رسالتها وطرافتُها لا الوسيطُ الذي تمرّ عَبْره.»

ولكنّ جان ماري غيهينو Guehenno، وهو خبيرٌ في علاقة الدولة بالهويّة القوميَّة، متشائم حيال حظوظ إعطاء هذه الاستراتيجيَّة فرصةً للعمل. وهو يَكْتب أنَّ اللاأميركيَّة تتعاظم على الأرجح «برغم ادّعاء العكس، وبرغم نجاح الثقافة الأميركيَّة في أوساط الشعب الفرنسيّ.» ويقول إنَّ هذا تطوُّر خطير يَعْزل فرنسا ويشجِّع الناسَ على «الانسحاب إلى عالمٍ من الأوهام تَبْدو فيه الفرنكفونيَّةُ وكأنَّها تتصدّى للأنكلوساكسونيّين، تمامًا كما يواجهُ أستريكس الإمبراطوريَّةَ الرومانيَّة.» ولا عجب أنَّه بعد شهورٍ فقط من هذا التحذير، وفي ٣ شباط (فبراير) ١٩٩٩ تحديدًا، أَنْتجت الصناعةُ السينمائيّةُ الفرنسيَّةُ، وسطَ جوٍّ مفعم بالاستحسان والتهليل، أغلى إنتاجٍ في حياتها: «أَستْرِيكس وأوبليكس ضدّ قيصر.» لقد كان هذا الفيلم، كما قالت **لوموند**، إنتاجًا فائقًا، مثَّلَ تمامًا صورةَ المقاومة الوطنيّة الفرنسيّة للإمبرياليّة السينمائيّة الأميركيّة.

إنَّ النزعة اللاأميركيَّة هي بالتأكيد شكلٌ غامضٌ من أشكال الردّ على حضور أميركا قوةً كبرى في أوروبا. وكثيرًا ما تَعْكس تجلّياتُها الأكثرُ إيديولوجيَّةً النَّمطَ التبشيريَّ الذي تَعْرض عَبْره أميركا دروسَ تاريخها أمام العالم. فحين توصفُ تجربةٌ قوميَّةٌ ما بلغةِ «الاستثنائيَّة والفرادة،» فلا عجب أن يَرْفض أعداؤها نَمطَ حياتها ورسالتَها ورموزَها وأعمالَها. وفي ما يخصّ فرنسا بالتحديد، على نحوِ ما يَكْتب ريتشارد كُوزلْ الأميركيُّ المختصُّ بالشؤون الفرنسيَّة:

«فإنّ أساس النزعة اللاأميركيَّة ثقافيّ، ويتمحور حول مفهوم حماية الحضارة ونشرها. ومع أنّ الخلافات الفرنسيَّة ـ الأميركيَّة في العلاقات الدوليَّة وفي أمور التجارة والاقتصاد ستواصل إثارةَ الانتقاد الفرنسيّ للقوَّة الغربيَّة الأميركيَّة المهيمنة، فإنّ لُبَّ المقاومة

* ـ إزاء: cultural protectionism. (م)

اللاأميركيّة الفرنسيّة وماكدونالدز

الفرنسيّة يَنْبع من إحساسٍ بالاختلاف الفرنسيّ وبالتفوُّقِ الفرنسيّ وبالرسالةِ الكونيّة الفرنسيّة ـ وكلُّ هذه الأمور يَجْمعها مصطلحُ ' الحضارة .' وإنّ النزعة الكونيّة المُضْمَرَة في مفهوم الحضارة هذا تُنْتج تنافسًا مع الولايات المتحدة، لإحساس هذه الأخيرة بأنّ لديها هي الأخرى رسالةً كونيّة.»

غير أنّ اللاأميركيّة المعاصرة أكثرُ من مجرّد موقف إيديولوجيّ مزعوم. فخلفها تَقْبَعُ رزمةٌ من الصور والتنميطات التي جمّعها الزائرون الأوروبيُّون عن «العالم الجديد» على امتداد القرن التاسع عشر. ثم جاء تطويرُ أميركا في عشرينيّات القرن العشرين لمثالٍ تحديثيّ حيويّ (من الناحية الإيديولوجيّة) وتثويريّ. كما أنّ التجربة المشتركة التي جمعتْ أوروبا وأميركا في حربيْن عالميّتيْن اثنتَيْن وفي حربٍ باردةٍ خلّفتْ هي أيضًا إرثًا من المواقف الأوروبيّة حيال أميركا. وبغيرِ هذه السَّوابق والذرائع التاريخيّة كلّها لم يَكُن صعودُ قوّة الولايات المتحدة منذ الحرب العالميّة الثانية ليجتذبَ مشاعرَ الاستياء والعداء التي عبَّرتْ عنها النزعةُ اللاأميركيّة الكلاسيكيّة في بلدٍ مثل فرنسا. والمعادِل الحقيقيّ اليومَ لوضع أميركا بالنسبة إلى «العالم القديم» ليس السلّمَ الدوليّ برعايةٍ بريطانيّة (پاكس بريتانيكا) كالذي ساد في القرن التاسع عشر، وإنّما ما جرى في عشرينيّات القرن العشرين. ففي هذه الفترة راحت الفورديّة،[1] وهوليوود، والجاز، وقاعاتُ الرقص، وأشكالٌ جديدةٌ من الدعاية والتسلية، ونماذجُ الممثلين والمغنّين القُدوة، تَكْتسح أوروبا ما بعد الحرب العالميّة الأولى وتَسْتعدي النُّخَبَ الأوروبيّةَ التقليديّة المنخرطة في مشقّةِ إعادةِ تشكيل قوّتها وشرعيّتها. وكان تعبير Americanism [الأميركانيّة، أو النزعة الأميركيّة] متداولاً في منتصف القرن التاسع عشر، وهو تعبيرٌ أَقَرَّ بإرث أميركا الفريد من المُثُل والتطلُّعات. وبدأ استخدامُ مصطلح «اللاأميركيّة» في عشرينيّات القرن العشرين. كما بدأ التعبيرُ عن الشجون العابرة للمحيط الأطلسيّ في ذلك الوقت ـ كديون الحرب، وتعويضات الحرب، والمنافسة البحريّة، وقوّةِ الثقافة الجُمْليّة الجديدة mass culture ـ بلغةٍ تَرْبط السياسات الأميركيّةَ الداخليّة والخارجيّة بما اعتُبِر نقائصَ هذه الأمة مجتمعًا وحضارةً.

في فرنسا أَثْمر هذا التوجُّهُ النقديُّ الجديدُ حيال أميركا كتبًا قُيِّضَ لها أن تَكْتسب دلالةً مستمرّةً لكونها رَسَمَت الطريقَ لنقد أَثَر أميركا المرجَّح في مستقبل فرنسا. كان أَشْهر تلك الكتب كتابُ دوهامل **مَشاهِد من الحياة في المستقبل** (١٩٣٠). وكان أكثرها حسمًا هو كتاب المعلّق السياسيّ أندريه سيغفريد Siegfried **الأمم المتحدة اليوم**، وهو مناقشة لكلّ المسائل العالقة بين فرنسا والولايات المتحدة في ذلك الوقت. وقدَّم السياسيّ والديبلوماسيّ أندريه تارديو Tardieu كتاب **أمام العائق: أميركا ونحن**، في حين كان عملُ الصحافيّ المهتمّ بأخبار الأعمال لوسيان روميه Romier **مَنْ سَيكون السيّد: أوروبا أم أميركا**؟ نقدًا شاملاً للمجتمع الجُمْليّ ولمسؤوليّة أميركا عن نشره. كانت تلك الكُتُب كلُّها أكثرَ الكتب مبيعًا، ودشَّنَتْ نَسَقًا شمل فيما بعد كتابَ ران اتْيَمْبل Etiemble **هل تتحدَّث الفَرَنْكليزيّة**؟ Parlez-vous Franglais? (١٩٦٤) وكتابَ جان جاك سيرڤان ـ شريبرْ Schreiber **الهزيمة الأميركيّة** (١٩٦٧). أولُهما هو الذي بدأ طرحَ السؤال الذي نوقش طويلاً، وهو سؤالُ اللُّغة، ودعا إلى حملةٍ تُنقذ التراثَ الثقافيَّ الفرنسيَّ من «الكابوس الأميركيّ المكيَّف،» تمامًا مثلما

١ ـ نسبة إلى هنري فورد، الذي أسّس شركةَ فورد للسيّارات، واستطاع عام ١٩١٣ أن يَبيع طراز T بـ ٥٠٠ دولار فقط بسبب الإنتاج الجُمْليّ. (م)

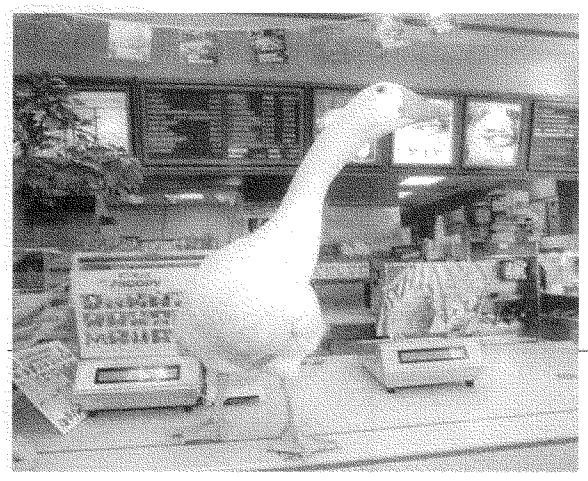

عام ١٩٩٩ حطّم بوڤيه أحد مطاعم ماكدونالدز وأدخل إليه حيواناته الداجنة: لماذا نريد طعامًا مستوردًا؟

كان شارل دوغول يَفْعل في العلاقات الدوليّة والاقتصاد. أما كتاب الثاني، وهو أعظم أثرًا من سابقه، فدعا إلى أَوْرَبَةِ السِّمات التقنيّة والاجتماعيّة الأنجح في أميركا. كما أنّه اخترَعَ مجلةَ **لِكْسپرسْ**، وهي نسخة فرنسيّة عن مجلتيْ **تايم** أو **نْوزويك** الأميركيَّتيْن. ومن ستينيّات القرن العشرين أيضًا صَدَرَ نقد جذريّ عالمثالثيّ للإمبرياليّة الأميركيّة، عَبَّر عنه أبلغَ تعبيرٍ ملحقُ **لوموند ديپلوماتيك**، وهو ملحق جريدة **لوموند** للشؤون الدوليّة، ويواصِل اليومَ ذلك التقليدَ.

تسعينيّاتُ القرن العشرين أعادت النقاشَ إلى أثر إنتاج هوليوود السينمائيّ والتلفزيونيّ، فأَحْيَت سجالاً كان قد أثار مشاعر قويّة من الحمائيّة الثقافيّة في العشرينيّات والأربعينيّات. وفي مباحثات الـ «غات» حول التجارة العالميّة عام ١٩٩٣ قادت الصناعةُ الفرنسيّةُ السمعيّةُ البصريّةُ ـ مدعومةً بشدّةٍ من الرئيس الاشتراكيّ الفرنسيّ والحكومةِ المحافظة ـ جهودًا من أجل سَحْبِ بضائعها من إطار المفاوضات، على أساس أنّ التجارة الحرّة تُعطي الأفضليّةَ بشكلٍ ثابتٍ للمُنْتِجين الأقوى. وأَعْلن ميتران في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٣ أنّه «لا يَنْبغي» لأيّ دولةٍ بعينها «أن تتحكّم بصُوَرِ العالَم أجمع. إنّ ما يتعرَّض للخطر هو الهويّةُ الثقافيّةُ لأُمَمِنا، وحقُّ كلّ شعبٍ في ثقافته الخاصّة به.» ولئن هوجم فيلم «جوراسيك پارك» لكونه تهديدًا للهويّة القوميّة الفرنسيّة، على نحوِ ما فعَلَ قبل شهور من ذلك التاريخ وزيرُ الثقافة الفرنسيّ، فإنّ ذلك لا يعود ببساطة إلى اختلال ميزان القوّة الاقتصاديّة بين صناعة السينما الفرنسيّة وهوليوود. بل إنّ موقفًا كهذا عَكَسَ إحساسًا بأنّ فرنسا تُكْرَهُ على التخلّي عن «مفهومٍ للقوميّة يَفْترض سيادةَ الأمّة على ثقافتها،» بحسب ما كتبت المؤرّخة الأميركيّة ڤيكتوريا دي غراتسيا في حديثها عن أثر هوليوود في العشرينيّات.

المعركة تنتقل إلى المعدة

إلى زمنٍ قريب كانت معركةُ السيادة الثقافيّة محورُها اللُّغاتُ والصُّوَرُ والتوقُّعاتُ، وعقولُ الأجيال الشابة في كل بلد. ولكنْ يبدو الآن أنّ المعركة تنتقل إلى المَعِدة. ولقد واجهتْ سلسلةُ مطاعم ماكدونالدز، بوصفها هدفًا للاستغلال المعمَّم للتدخّل التجاريّ الأميركيّ في فرنسا، مستوياتٍ من العدوانيّة لم يسبق أن أزعجتْ سَلَفَيْها في الأربعينيّات والخمسينيّات: مجلةَ **ريدرز دايجست**، وشركةَ كوكاكولا. فمع أنّ محلات بَيْع الوجبات السريعة لاقت معارضةً من هامستيد (إنكلترا) إلى هامبورغ (ألمانيا) ومن فلورنس (إيطاليا) إلى كراكو (بولندا)، فإنّ أيّاً منها لم يَشْهد مقتلَ أحد موظّفيها في هجومٍ إرهابيٍّ على نحوِ ما حدث في مطعم ماكدونالدز في برتانْي (شماليّ فرنسا) في نيسان (أبريل) ٢٠٠٠. في فرنسا كانت شركةُ ماكدونالدز قد افتتحت أوّل مطعمٍ لها في مدينة ستراسبور عام ١٩٧٩، وبعد ٢٠ سنة كان هناك ٧٩٠ مطعمًا لماكدونالدز تَعْمل في فرنسا، وبازدياد بلغتْ نسبتُه حوالى ٨٠٪ كلَّ سنة منذ منتصف العقد الثامن. وأَعْلن التقرير السنويّ لماكدونالدز عام ١٩٩٩ أنّ أوروبا كانت أَنْجَحَ قطاعاتها في العالم قاطبةً، وأنّ فرنسا كانت واحدًا من أكثر بلدان أوروبا مبيعًا لمأكولاتها. في هذه الأثناء أُغلقت مئاتٌ من الحانات والمطاعم الفرنسيّة الصغيرة التقليديّة في طول البلاد وعرضها، ضحيةً لتبدُّل الأذواق ولنظام الضرائب العُقوبيّ الذي ـ بحَسْب مظاهرةٍ لرؤساء الطبّاخين في باريس في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٩ ـ انحاز بشكل مباشر لصالح صناعة الوجبات السريعة.

تبيَّن تجربةُ ماكدونالدز في فرنسا كيف أنّ رموزًا صغيرةً نسبيّاً من رموز القوّة الاقتصاديّة الأميركيّة هي التي مايزال يُتَوَقَّع، بسبب وجودها البارز للعيان وحضورها الطاغي وحيويّتها، أن تتحمَّل العبءَ الأعظم للاستياء الناتج عن العداء للأمريكانيّة، فيما

اللاأميركيَّة الفرنسيَّة* وماكدونالدز

يحاول السكّانُ والمستهلِكون المحليُّون أن يَحْشدوا تأثيرَهم ضدّ قوة الشركة التي كانت ذاتَ يوم «متعدِّدةَ الجنسيَّات» فغدت اليومَ معولمةً (كونية). عام ١٩٩٩ كانت تظاهرةُ بوڤيه ضدّ ماكدونالدز قد أَوْقد شرارتَها إدراجُ جبنةِ «روكفور» ضمن مجموعة أخرى من البضائع الأوروبيَّة التي طالتها العقوباتُ الأميركيَّة عبر إخضاعها لتعرفاتِ استيرادٍ عالية احتجاجًا على الرفض الأوروبيّ لشراء كميّات غيرِ محدودة من لحم البقرِ المنمّى بالهورمونات. وتتطلَّب صناعةُ جبنة «روكفور» ذلك النوعَ من الحليب غيرِ الملوَّث الذي تقدِّمه مزرعةُ جوزيه بوڤيه؛ ولكنْ وفقًا لشروط العولة «يستطيع الأميركانُ أن يُلغوا عملَكَ بكبسةِ زرٍّ كومبيوتر،» على نحوِ ما قال هذا البطلُ القوميُّ الفرنسيُّ الجديد لأحد المحاورين التلفزيونيّين. في هذه الأثناء انتقدتْ **لوموند** أميركا «التي تهدِّد هيمنتُها التجاريَّةُ الزراعةَ الفرنسيَّة، وتخرِّب هيمنتُها الثقافيَّةُ على نحوٍ ماكرٍ التقاليدَ المطبخيَّةَ التي تشكِّل الومضاتِ المقدَّسةَ للهويَّة الفرنسيَّة.»

اللاأميركيَّة: صورة الذات

كلّما التقى القديمُ والحداثيّ وما بعد الحداثيّ في أوروبا المعاصرة يُرجَّح أن يُعاد تمثيلُ نسخةٍ ما من تلك المواجهة الطويلة والحادّة والمعقّدة التي حدثتْ في القرن العشرين بين الثقافة الجُمْليَّة الأميركيَّة والأوروبيَّة. ومع صعود الموادِّ الغذائيَّة فجأةً إلى رأس المجالات المتصارَعِ عليها، منحِّيةً جانبًا سِلعًا أخرى كالأفلام والبضائع التكنولوجيَّة والأعمالِ واللُّغة والتلفزيون والدُّرْجة الثقافيَّة، يَغْلب أن تتّخذ المواجهةُ في المستقبل نكهةً أكثرَ مرارةً. وفي نقاش جرى عام ١٩٨٨ شدّدت المتخصِّصة الفرنسيَّة البارزة ماري فرانس توانيه Toinet على ضرورة التمييز بين التجلّيات الخارجيَّة للمشاعر اللاأميركيَّة من جهة، وجذورِ تلك التجلّيات من جهة ثانية. ورأتْ أنَّ «المهمَّ في افتتان الفرنسيِّين بالنزعة الأميركيَّة ورفضِهم لها أيضًا» إنّما يعود إلى أنَّ «الفرنسيِّين لا يُجْرون في هذه الحال نقاشًا عن الولايات المتحدة بقَدْرِ ما يناقشون أنفسَهم، ومجتمعَهم، وأهدافَهم، وأساليبَهم هُمْ. إنَّه، إذا جاز التعبير، نقاشٌ فرانكو ـ فرنسيّ، حيث تُستخدم الاحتجاجاتُ على أميركا ـ وهي احتجاجاتٌ فجَّةٌ غيرُ ناضجة في الغالب ـ مجرَّدَ أعذارٍ أو ذرائع. إنَّ الفرنسيِّين في الواقع إنَّما يَسْتخدمون الولايات المتحدة مرآةً يَنْظرون فيها إلى أنفسهم.»

غير أنَّ الضغوط الناجمة عن التغيُّرات الاجتماعيَّة والتكنولوجيَّة، وعن اللاتوازن في القوّة الثقافيَّة بين أميركا وفرنسا، إنَّما هي ضغوطٌ حقيقيَّةٌ اليوم مثلما كانت حقيقيَّةً في العشرينيَّات. ومع أنَّ النزعة اللاأميركيَّة في الفكر السياسيّ والثقافيّ الفرنسيّ لا تُمْكن مقارنتُها بأيِّ شكلٍ من الأشكال بعداوات فرنسا التاريخيَّة للبريطانيِّين والألمان، فإنَّها مازالت موجودة. ومع حلول القرن الحادي والعشرين تبقى فرنسا أكثرَ الدول قلقًا من القوّة الأميركيَّة في الحياة الدوليَّة. وإنَّنا إزاء نقاشٍ يحاول أن يَرْبط أبعادَ هذه القوّة الأميركيَّة السياسيَّة والاقتصاديَّة والثقافيَّة الجُمْليَّة بالأسئلة المعاصرة الكبرى عن السيادة والعولة، وعن الهويّة والحداثة.

دايڤيد ألوود

أستاذ مشارك في التاريخ الدوليّ في جامعة بولونيا. من مؤلفاته: **اللاأميركيَّة في أوروبا الغربيَّة: منظورٌ مقارن** (جامعة جونز هوپكنز، مركز بولونيا، ١٩٩٩). وقد نُشر هذا المقال أصلاً في مجلة History Today، عدد شباط (فبراير) ٢٠٠١.